الفصل الثاني

في إقامة الحجة على مثبتي الوحي المطلق

في إثبات نبوة محمد ﷺ

إن من اطلع على الكتب المقدسة عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى المعبر عنها بكتب العهدين القديم والجديد، وعلى كتب السنة والسيرة المحمدية، من أحرار الفكر ومستقلي العقل - علم علماً وجدانياً أنه لا يستطيع أحد أن يؤمن إيماناً علمياً بأن تلك كتب وحي من الله، وأن الذين كتبوها أنبياء معصومون فيما كتبوه، ثم لا يؤمن بأن القرآن وحي من الله وأن محمداً نبي معصوم فيما بلغه عن الله تعالى، كما لا يستطيع فقيه أن ينكر فقه أبي حنيفة والشافعي، ولا نحوي أن يجحد نحو سيبويه وابن جِنِّي، ولا شاعر أن ينفي شاعرية الرَضي والبحتري، وقل مثل ذلك في الطبيب والفيلسوف والرياضي والفلكي- كل منهم مع أئمة علمه، وفي كل إنسان صحيح الحواس في المدركات الحسية. فالبصير لا يستطيع أن يكابر حسه فيفضل نور القمر والكوكب على ضوء الشمس، أو نور السراج على نور النهار، ولله در البوصيري حيث قال:

الله أكـــــبر إن ديـــــن محمـــــد وكتابـــه أقـــوى وأقـــوم قـــيلا

لا تـذكروا الكتـب الـسوالف عنـده طلـع الـصباح فـأطفيء القنـديلا

وقد صرح بهذا المعنى علماء الإفرنج الذين نشؤا في النصرانية، وأحاطوا بها علماً وخبراً، ثم عرفوا الإسلام معرفة صحيحة ولو غير تامة.

كتب الأستاذ إدوار مونتيه المستشرق مدرس اللغات الشرقية في مدرسة جنيف الجامعة في مقدمة ترجمته الفرنسية للقرآن ما ترجمته بالعربية:

«كان محمد نبياً صادقاً كما كان أنبياء بني إسرائيل في القديم، كان مثلهم يؤتى رؤيا ويوحى إليه، وكانت العقيدة الدينية، وفكرة وجود الألوهية متمكنتين فيه، كما كانتا متمكنتين في أولئك الأنبياء أسلافه، فتُحدث فيه كما كانت تُحدث فيهم ذلك

الإلهام النفسي، وهذا التضاعف في الشخصية، اللذين يحدثان في العقل البشري المرائي والتجليات والوحي والأحوال الروحية التي من بابها» اهـ.

فهذا العالم الأوربي المستقل الفكر يقول: إن كل ما كان به أنبياء بني إسرائيل أنبياء كان ثابتاً لمحمد. ونحن نقول: إن جميع خصائص النبوة التي كانت فيه هي أكمل شكلاً وموضوعاً وأصح رواية وأبعد من الشبهات كما سنوضحه، وأما ما فسر به هذه الخصائص، فهو التعليل الذي يعلل به الماديون الوحي المطلق، وسنتكلم عليه في الفصل الثالث.

ولخص هذا العالِم خبر نزول الوحي على محمد ﷺ من كتب إسلامية مذعناً لصحة روايتها. وفصلها بعده العالم المستشرق الفرنسي أميل درمنغام[1] في كتابه (حياة محمد) مذعناً لصحة الرواية ولموضوعها، شارحاً لتأثير نبوته في إصلاح البشر متمنياً الاتفاق بين المسلمين والنصارى، آسفاً للشقاق بينهم.

وإنا ننقل هنا تعريف الوحي والنبوة والآيات (العجائب) عن أحد علماء الإفرنج الجامعين بين العلوم العصرية والدينية والتواريخ، وهو الدكتور جورج بوست الشهير مؤلف كتاب (قاموس الكتاب المقدس) بالعربية ليبني عليها الباحث المستقل العقل حُكمه في نبوة أنبياء بني إسرائيل ووحيهم، ونبوة محمد رسول الله وخاتم النبيين، والوحي الذي أنزل عليه.

تعريف الوحي والنبوة والأنبياء عند النصارى

جاء في تفسير كلمة «وحي» من قاموس الكتاب المقدس المطبوع في المطبعة الأميركانية في بيروت سنة 1894 ما نصه مع حذف أكثر رموز الشواهد:

«تستعمل هذه اللفظة للدلالة على نبوة خاصة بمدينة أو شعب» وجاء في (جزء 12 : 10) «هذا الوحي هو الرئيس» أي أنه آية للشعب، وعلى العموم يراد بالوحي

(1) يُكتب هذا الإسم في مجلة السياسة (درمنجيم) بالجيم المصرية حيث يُنشر فيها كتابه (حياة محمد) مترجماً بالعربية وإنما إخترنا كتابته بالغين لكتاب جاءنا من المؤلف بالعربية كتب فيها إمضاءه هكذا (أميل درمنغام) ونشرناه في الجزء الأول من مجلد المنار الثلاثين.

الإلهام. وعلى ذلك يقال «إن كل الكتاب موحى به من الله» والوحي بهذا المعنى هو حلول روح الله في روح الكتاب الملهَمين. وذلك على أنواع:

(1) إفادتهم بحقائق روحية أو حوادث مستقبلة لم يكن يمكنهم التوصل إليها إلا به.

(2) إرشادهم إلى تأليف حوادث معروفة أو حقائق مقررة والتفوه بها شفاهاً، أو تدوينها كتابة بحيث يعصمون من الخطأ. فيقال «تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس» وهنا لا يفقد المتكلم أو الكاتب شيئاً من شخصيته وإنما يؤثر فيه الروح الإلهي بحيث يستعمل ما عنده من القوى والصفات وفق إرشاده تعالى. ولهذا نرى في كل مؤلف من الكُتَّاب الكرام ما امتاز به من المواهب الطبيعية ونمط التأليف وما شابه ذلك. وفي شرح هذا التعليم دقة. وقد اختلف العلماء فيما أوردوه من شرحه، غير أن جميع المسيحيين يتفقون على أن الله قد أوحى لأولئك الكُتَّاب ليدونوا إرادته ويُفيدوا الإنسان ما يجب عليه من الإيمان والعمل لكي ينال الخلاص الأبدي» اهـ.

وجاء في تفسير «نبي، أنبياء، نبوة» منه ما نصه:

«النبوة لفظة تفيد معنى الإخبار عن الله وعن الأمور الدينية ولا سيما عما سيحدث فيما بعد. وسمي هارون نبياً، لأنه كان المخبر والمتكلم عن موسى نظراً لفصاحته (خروج 7 : 1) أما أنبياء العهد القديم فكانوا ينادون بالشريعة الموسوية، وينبئون بمجيء المسيح، ولما قلت رغبة الكهنة وقل اهتمامهم بالتعليم والعلم في أيام صموئيل أقام مدرسة في الرامة وأطلق على تلامذتها اسم بني الأنبياء، فاشتهر مِن ثَمَّ صموئيل بإحياء الشريعة وقُرن إسمه باسم موسى وهارون في مواضع كثيرة من الكتاب، وتأسست أيضاً مدارس أخرى للأنبياء في بيت إيل وأريحا والجلجال وأماكن أخرى. وكان رئيس المدرسة النبوية يدعى أباً أو سيداً، وكان يُعلم في هذه المدارس تفسير التوراة والموسيقى والشعر، ولذلك كان الأنبياء شعراء وأغلبهم كانوا يرنمون ويلعبون على آلات الطرب، وكانت الغاية من هذه المدارس أن يرشح

الطلبة فيها لتعليم الشعب. أما معيشة الأنبياء وبني الأنبياء فكانت ساذجة للغاية، وكثير منهم كانوا متنسكين أو طوَّافين يضافون عند الأتقياء.

«ويظهر أن كثيرين من الذين تعلموا في تلك المدارس لم يعطوا قوة على الإنباء بما سيأتي، إنما أختص بهذه الخصوصية أناس منهم كان الله يقيمهم وقتاً دون آخر حسب مشيئته، ويعدهم بتربية فوق العادة لواجباتهم الخطيرة، على أن بعض الأنبياء الملهمين كان يختصهم الله بوحيه ولم يتعلموا من قبل ولا دخلوا تلك المدارس كعاموس مثلاً، فإنه كان راعياً وجاني جميز[1].

«أما النبوة فكانت على أنواع مختلفة كالأحلام والرؤى والتبليغ، وأحياناً كثيرة كان الأنبياء يرون الأمور المستقبلة بدون تمييز أزمنتها، فكانت تقترن في رؤاهم الحوادث القريبة العهد مع البعيدة كاقتران نجاة اليهود من الأشوريين بخلاص العالم بواسطة المسيح، وكانتصار إسكندر ذي القرنين بإتيان المسيح، وكاقتران انسكاب الروح القدس يوم الخميسين بيوم الحشر. ومن هذا القبيل اقتران خراب أورشليم بحوادث يوم الدينونة، وقد أرسل الله الأنبياء الملهمين ليعلنوا مشيئته وليصلحوا الشؤون الدينية وعلى الأخص ليخبروا بالمسيح الآتي لتخليص العالم. وكانوا القوة العظيمة الفعالة في تعليم الشعب وتنبيههم وإرشادهم إلى سبيل الحق، وكان لهم دخل عظيم في الأمور السياسية» اهـ بنصه.

بعض ما يرد على نبوتهم من تعريفها

أما تفسيره الإلهام بحلول روح الله في روح الملهَم فهو تحكم للنصارى لا يعرفه ولا يعترف به أنبياء بني إسرائيل ولا علماؤهم، ولا يمكنهم إثباته ولا دفع ما يرد عليه من وقوع التعارض والتناقض والخلف فيما كتبه أولئك الملهمون وما خالفوا فيه الواقع، وقد أشار إلى ذلك بقوله «إن في شرح ذلك التعليم دقة، وأن العلماء اختلفوا في شرحه» الخ، ومن حل فيه روح الله صار إلهاً، إذ المسيح لم يكن إلهاً عند

(1) أي كان له حرفتان هما رعي المواشي وقطف ثمر الجميز لأصحابه.

النصارى إلا بهذا الحلول، فكيف يقع في مثل ما ذكر ويتخلف وحيه أو يخالف الواقع؟

وأما كلامه في النبوة والأنبياء فيؤخذ منه ما يأتي:

(1) أن أكثر أنبياء بني إسرائيل كانوا يتخرجون في مدارس خاصة بهم يتعلمون فيها تفسير شريعتهم التوراة والموسيقى والشعر، وأنهم كانوا شعراء ومغنين وعزافين على آلات الطرب وبارعين في كل ما يُؤثر في الأنفس ويحرك الشعور والوجدان، ويثير رواكد الخيال، فلا غرو أن يكون عزراً ونحمياً من أعظم أنبيائهم ساقيين من سقاة الخمر لملك بابل (ارتحششتا) ومغنيين له، وأن يكونا قد استعانا بتأثير غنائهما في نفسه على سماحه لهما بالعودة بقومهما إلى وطنهما وإقامة دينهما فيه.

فالنبوة على هذا كانت صناعة تُعلم موادها في المدارس، ويستعان على الإقناع بها بالتخييلات الشعرية والإلهامات الكلامية، والمؤثرات الغنائية والموسيقية، والمعلومات المكتسبة، فأين هي من نبوة محمد الأمي الذي لم يتعلم شيئاً ولم يقل شعراً، وقد جاء مفرداً، بأعظم مما جاءوا به كلهم أجمعون مجتمعاً؟

(2) أن كثيراً من هؤلاء الأنبياء وأولادهم كانوا متنسكين أو طوافين على الناس يعيشون ضيوفاً عند الأتقياء المحبين لرجال الدين، كما هو المعهود من دراويش المتصوفة أهل الطرق في المسلمين، ومن المعلوم أن هؤلاء المحبين يقبلون من رجال التنسك كل ما يقولون، ويُسَلِّمون لهم كل ما يدعون، ويذيعون عنهم كل ما يقبلون منهم، ومن غير هؤلاء الكثيرين من الأنبياء من نقلت عنهم كتبهم المقدسة بعض كبائر المعاصي، وإن من أخبار الصوفية والنساك والسياح عند المسلمين من تَفْضُل سيرتهم سيرة هؤلاء الأنبياء في كتبهم، فكيف يصح أن يرتفع أحد منهم إلى درجة محمد ﷺ في نشأته الفطرية ومعيشته من كسبه، وكونه لم يكن عالة على الناس في شيء قبل النبوة ولا بعدها؟

(3) أشهر أنواع نبوتهم الأحلام والرؤى المنامية والتخيلات المبهمة، وكلها تقع لغيرهم، وقد كانت الرؤيا الصادقة مبدأ نبوة محمد ﷺ قبل وحي التشريع الذي

كان له صور أعلى منها سنبينها بعد[1]. والرؤى صور حسية في الخيال تذهب الآراء والأفكار في تعبيرها مذاهب شتى، قلما يعرف تأويل الصادق منها غير الأنبياء، كرؤيا ملك مصر التي عبرها يوسف عليه السلام، ورؤياه هو في صغره.

(4) أن نبوة الإخبار عن الأمور المستقبلة -وهي التي يستدلون بها على كونهم مخبرين عن الله تعالى- كانت أحياناً كثيرة بدون تمييز أزمنتها ولا حوادثها، فكان بعضها يختلط ببعض، فلا يكاد يظهر المراد منها إلا بعد حملها على شيء واضح بعد وقوعه، كما يعهد في كل عصر من أخبار العرافين والمنجمين بَلْهَ الروحانيين المكاشفين، ومنها ما ظهر خلافه كما أشار إليه ولم يشرحه، ولكن التاريخ شرحه.

وكان أعظم نبوات هؤلاء الأنبياء إخبارهم عن المسيح (مسيا) وملك إسرائيل ولا يزال اليهود ينتظرونها[2]، ثم إخبار المسيح نفسه عن خراب العالم ومجيء الملكوت لأجل دينونة العالم، وأنه لا ينقضي الجيل الذي خاطبه حتى يكون ذلك كله. وقد مر أجيال كثيرة ولم يكن من ذلك شيء.

امتياز نبوة محمد على نبوة من قبله في موضوعيها والموازنة بينه وبين موسى وعيسى عليهم السلام

أَنَّى تُضاهيء تلك الأخبار (النبوات) -وهي كما علمت- أنباء القرآن الكثيرة بالمغيبات، كالذي بيناه في خلاصة تفسير سورة براءة (التوبة) مما وقع من المنافقين، وما هو في سورة الفتح، وقد وقع في عهد النبي ﷺ، وفي غيرهما كقوله تعالى في أول سورة الروم ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ [الروم]، وقوله ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [النور:55] الآية. وأين هي من إنباء النبي ﷺ أصحابه بأنهم سيفتحون بلاد الشام وبلاد الفرس ومصر، ويستولون على ملك

(1) قد بينتها في الفصل الأول الذي زدته في الطبعة الثانية أيضاً.

(2) أي ينتظرون صدق هذه النبوة.

كسرى وقيصر، حتى إنه سمى كسرى عصره باسمه، كما رواه البخاري عن عدي بن حاتم[1]؟

هذا ما يقال بالإجمال في أحد موضوعي النبوة، وهو الإخبار عما سيكون في مستقبل الزمان، فما جاء به محمد ﷺ منها في وحي القرآن وغيره، أظهر وأوضح وأبعد عن احتمال التأويل، وأعصى على إنكار المرتابين، ويزيد عليه ما جاء به من أنباء الغيب الماضية، وسأرد ما يتأوله به الجاحدون للنبوة في بيان بطلان شبهتهم.

وأما الموضوع الثاني للنبوة وهو الأهم الأعظم، أي عقائد الدين وعباداته وآدابه وأحكامه، فالنظر فيه من وجهين: (أحدهما) ما ذكروه من كونه لا يمكن أن يصل إليه عقل من جاء به وفكره، ولا علومه ومعارفه الكسبية، فيتعين أن يكون بوحي من الله.

(وثانيهما) أن يكون ما فيه من هداية الناس وصلاح أمورهم في دينهم ودنياهم أعلى في نفسه من معارف البشر في عصره، فيتعين أن يكون وحياً.

فأما الأول الخاص بشخص الرسول فإن العاقل المستقل الفكر إذا عرف تاريخ محمد ﷺ وتاريخ أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام فإنه يرى أن محمداً ﷺ قد نشأ أمياً لم يتعلم القراءة والكتابة، وأن قومه الذين نشأ فيهم كانوا أميين وثنيين جاهلين بعقائد الملل وتواريخ االأمم وعلوم التشريع والفلسفة والأدب، حتى إن مكة عاصمة بلادهم وقاعدة دينهم ومثوى كبرائهم ورؤسائهم ومثابة الشعوب والقبائل للحج والتجارة فيها، والمفاخرة بالفصاحة والبلاغة في أسواقها التابعة لها، لم يكن يوجد فيها مدرسة ولا كِتَاب مدون قط، فما جاء به من الدين التام الكامل والشرع العام العادل، لا يمكن أن يكون مكتسباً ولا أن يكون مستنبطاً بعقله وفكره، كما بيناه من قبل، وسندفع ما يَرِد من الشبهة عليه بعد (في الفصل الثالث).

ويُرى تجاه هذا أن موسى عليه السلام أعظم أولئك الأنبياء في علمه وعمله، وفي شريعته وهدايته، قد نشأ في أعظم بيوت الملك لأعظم شعب في الأرض وأرقاه

(1) سأورد طائفة من هذه الأنباء بالغيب في ملحقات هذا الكتاب أو الجزء الثاني منه.

تشريعاً وعلماً وحكمة وفناً وصناعة، وهو بيت فرعون مصر، ورأى قومه في حكم هذا الملك القوي القاهر مستَعبدين مستَذلين تُذبَّحُ أبناؤهم وتُستحيا نساؤهم، تمهيداً لإبادتهم ومحوهم من الأرض، ثم إنه مكث بضع سنين عند حميه في مدين وكان نبياً -أو كاهناً كما يقولون- فمن ثَمَّ يرى منكرو الوحي أن ما جاء به موسى من الشريعة الخاصة بشعبه ليس بكثير على رجل كبير العقل عظيم الهمة، ناشيء في بيت الملك والتشريع والحكمة الخ.

ثم ظهر في أوائل هذا القرن الميلادي أن شريعة التوراة موافقة في أكثر أحكامها لشريعة حمورابي ملك الكلدان الذي كان قبل موسى معاصراً لإبراهيم ﷺ، وقد قال الذين عثروا على هذه الشريعة من علماء الألمان في حفائر العراق: إنه قد تبين أن شريعة موسى مستمدة منها لا وحي من الله تعالى[1]، وأقل ما يقوله مستقل الفكر في ذلك: أنه إن لم تكن التوراة مستمدة منها فلا تُعد أحق منها بأن تكون وحياً من الله تعالى، ولم ينقل أن حمورابي ادعى أن شريعته وحي من الله تعالى.

ثم يرى الناظر أن سائر أنبياء العهد القديم كانوا تابعين للتوراة متعهدين بها، وأنهم كانوا يتدارسون تفسيرها في مدارس خاصة بهم وبأبنائهم مع علوم أخرى، فلا يصح أن يُذكر أحد منهم مع محمد ذكر موازنة ومفاضلة، ويرى أيضاً أن يوحنا المعمدان الذي شهد المسيح بتفضيله عليهم كلهم لم يأت بشرع ولا بنبأ غيبي. بل يرى أن عيسى عليه السلام وهو أعظمهم قدراً، وأعلاهم ذكراً، وأجلاهم أثراً، لم يأت بشريعة جديدة، بل كان تابعاً لشريعة التوراة مع نسخ قليل من أحكامها وإصلاح روحي أدبي لجمود اليهود المادي على ظواهر ألفاظها، فأمكن لجاحدي الوحي أن يقولوا: إنه لا يَكثر على رجل مثله زكي الفطرة، زكي العقل، ناشيء في حجر الشريعة اليهودية، والمدنية الرومانية، والحكمة اليونانية، غلب عليه الزهد

(1) قد شرحنا هذه المسألة في المجلد السادس من المنار وذكرنا خلاصتها في تفسير الآية 30 من سورة براءة (التوبة) وهي التاسعة، فتراجع في المنار سنة 1321 أو الصفحة 348 من الجزء العاشر من التفسير.

والروحانية، أن يأتي بتلك الوصايا الأدبية[1]. ونحن المسلمين لا نقول هذا ولا ذاك، وإنما يقوله الماديون والملحدون والعقليون، وألوف منهم يُنسبون إلى المذاهب النصرانية.

وأما الوجه الثاني وهو عقائد الدين وعباداته وآدابه وأحكامه فلا يرتاب العقل المستقل الفكر غير المقلد لدين من الأديان أن عقائد الإسلام من توحيد الله وتنزيهه عن كل نقص، ووصفه بصفات الكمال، والاستدلال عليها بالدلائل العقلية والعلمية الكونية، ومن بيان هداية رسله به ومن عباداته وآدابه المزكية للنفس المرقية للعقل، ومن تشريعه العادل، وحُكمه الشوري المرقي للإجتماع البشري – كل ذلك أرقى مما في التوراة والأناجيل وسائر كتب العهد القديم والجديد، بل هو الإصلاح الذي بلغ به دين الله أعلى الكمال، ويشهد بهذا علماء الإفرنج، وقد شرحناه من وجهة نظرنا ووجهة نظرهم في مواضع من المنار والتفسير[2] وسيأتي بيانه.

ومن نظر في قصص آدم ونوح وإبراهيم ولوط وإسحق ويعقوب ويوسف من سفر التكوين، وسيرة موسى وداود وسليمان وغيرهم من الأنبياء في سائر أسفار العهد القديم، ثم قرأ هذا القصص في القرآن يرى الفرق العظيم في الاهتداء بسيرة هؤلاء الأنبياء العظام، ففي أسفار العهد القديم يرى وصف الله تعالى بما لا يليق به من الجهل والندم على خلق البشر والانتقام منهم، ووصف الأنبياء أيضاً بما لا يليق بهم من المعاصي مما هو قدوة سوءى، من حيث يجد في قصص القرآن من حكمة الله تعالى ورحمته وعدله وفضله وسننه في خلقه، ومن وصف أنبيائه ورسله بالكمال، وأحاسن الأعمال، ما هو قدوة صالحة وأسوة حسنة تزيد قارئها إيماناً وهدى، فأخبار الأنبياء في كتب العهدين تشبه بستاناً فيه كثير من الشجر والعشب والشوك والثمار والأزهار والحشرات، وأخبارهم في القرآن تشبه العطر المستخرج من تلك

(1) على أن منهم من يعزو جُلها إلى كونفشيوس المشترع الصيني وإلى غيره من الحكماء الذين كانوا من قبل المسيح عليه السلام.

(2) آخرها (ص 359 ج 10 تفسير) وسنفرد له ملحقاً من علاوات هذه الطبعة.

الأزهار، والعسل المشتار من جني تلك الثمار، ويرى فيه رياضاً أخرى جمعت جمال الكون كله.

وندع هنا ذكر ما كتبه علماء الإفرنج الأحرار في نقد هذه الكتب والطعن فيها، ومن أخصرها وأغربها كتاب (أضرار تعليم التوراة والإنجيل) لأحد علماء الإنكليز[1]، وما فيها من مخالفة العلم والعقل والتاريخ، والقرآن خال من مثل ذلك.

صد الكنيسة عن الإسلام وبغيه عِوَجاً

إن رجال الكنيسة لم يجدوا ما يصدون به أتباعها عن الإسلام بعد أن رأوه قد قضى على الوثنية والمجوسية، وكاد يقضي على النصرانية في الشرق، ثم امتد نوره إلى الغرب، إلا تأليف الكتب ونظم الأشعار والأغاني في ذم الإسلام ونبيه وكتابه بالإفك والبهتان، وفحش الكلام، الذي يدل على أن هؤلاء المتدينين أكذب البشر، وأشدهم عداوة للحق والفضيلة في سبيل رياستهم التي يتبرأ منها المسيح عليه صلوات الله وسلامه.

وقد كان أتباعهم يصدقون ما يقولون ويكتبون، ويتهيجون بما ينظمون وينشدون، حتى إذا ما اطلع بعضهم على كتب الإسلام ورأوا المسلمين وعاشروهم فضحوهم أقبح الفضائح، كما ترى في كتاب (الإسلام خواطر وسوانح) للكونت دى كاسترى، وكما ترى في الكتاب الفرنسي الذي ظهر في هذا العهد باسم (حياة محمد) للمسيو درمنغام، وهذان الكاتبان إفرنسيان من طائفة الكاثوليك اللاتين، وقد صرحا كغيرهما بأن كنيستهم هي البادئة بالظلم والعدوان، والإفك والبهتان، وإعترفا بأدب المسلمين في الدفاع[2].

---

(1) هو تشارلس وطس وطبع في مطبعة (وطس وشركائه في لندن) وترجم بالعربية وطبع بمطبعة الموسوعات في مصر سنة 1319 هـ 1901 م.

(2) قال مسيو درمنغام في كتابه (حياة محمد) ما ترجمته العربية بقلم الدكتور محمد حسين هيكل بك: لما نشبت الحرب بين الإسلام والمسيحية اتسعت هوة الخلف وسوء الفهم بطبيعة الحال، وازدادت حدة، ويجب أن يعترف الإنسان بأن الغربيين كانوا السابقين إلى أكبر الخلاف. فمن المجادلين

ولما ظهرت طائفة البروتستانت وغلب مذهبها في شعوب الأنجلوسكسون والجرمان، وكان الفضل في دعوتهم الإصلاحية لما انعكس على أوربة من نور الإسلام لم يتعفف قسوسهم ودعاتهم (المبشرون) عن افتراء الكذب، ولا تجملوا فيه بشيء من النزاهة والأدب. والذي نراه في هذا العصر من مطاعنهم وافترائهم وسوء أدبهم أشد مما نراه من غيرهم، ولكن الذين أنصفوا الإسلام من أحرار علمائهم أصرح قولاً، ولعلهم أكثر من اللاتين عدداً، وكذلك الذين اهتدوا به، وسبب ذلك أن الحرية والإستقلال في تربيتهم أقوى، وسيكونون هم الذين ينشرون الإسلام في أوربة والولايات المتحدة الأميركانية ثم في سائر العالم كما جزم العلامة برناردشو الإنكليزي في كتابه الحياة الزوجية (واشتهر عنه هذا ونقلته صحف الأقطار الإسلامية).

البيزنطيين الذين أوقروا الإسلام احتقارا من غير أن يكلفوا أنفسهم -فيما خلاجان داماسيان- مؤنة دراسته، ولم يحارب الكتاب والنَظَّامون (يعني الشعراء) مسلمي الأندلس إلا بأسخف المثالب، فقد زعموا محمداً لص نياق (أي إبل) وزعموه متهالكاً على اللهو وزعموه ساحراً وزعموه رئيس عصابة من قطاع الطرق، بل زعموه قساً رومانياً مَغيظاً أن لم ينتخب لكرسي البابوية ... وحَسبه بعضهم إلهاً زائفاً «يقرب له عباده الضحايا البشرية»، وان جيبردنوجن نفسه وهو رجل جد ليذكر أن محمداً مات في نوبة سكر بين كذا وأن جسده وجد ملقى على كوم من الروث وقد أكلت منه الخنازير وذلك ليفسر السبب الذي من أجله حرم الخمر وحرم لحم ذلك الحيوان ... وذهبت الأغنيات إلى حد أن جعلت محمداً صنماً من ذهب وجعلت المساجد الإسلامية برابي (معابد أصنام) ملأى بالتماثيل والصور. وقد تحدث واضع أغنية إنطاكية حديث من رأى صنم ماهوم مصنوعاً من ذهب ومن فضة خالصين، وقد جلس فوق فيل على مقعد من الفسيفساء. وأما أغنية رولان التي تصور فرسان شارلمان يحطمون الأوثان الإسلامية فتزعم أن مسلمي الأندلس يعبدون ثالوثاً مكوناً من ترفاجان وماهوم (ويعنون به محمداً عليه السلام) وابولون. وتحسب «قصة محمد» أن الإسلام يبيح للمرأة تعدد الأزواج. وقد ظلت حياة الأحقاد والخرافات قوية متشبثة بالحياة، فمنذ رودلف دلوهيم إلى وقتنا الحاضر قام نيكولا دكيز وفيفس ومراتشي وهوتنجر ويليا تلار وبريد وغيرهم فوصفوا محمداً بأنه دجال والإسلام بأنه مجموعة من الهرطقات (الكفر) كلها، وأنه من عمل الشيطان، والمسلمين بأنهم وحوش والقرآن بأنه نسيج من السخافات. اهـ المراد منه على كثرته، وإبهام في ترجمته، وهو قليل من إسرافهم، وتراجع ترجمة كتاب (الإسلام: خواطر وسوانح) العربية لأحمد فتحي زغلول.

الآيات والعجائب أي الخوارق
وإثبات النبوة عندنا وعندهم[1]

بقي الكلام في مسألة العجائب التي بنيت على أساسها الكنائس النصرانية على إختلاف مذاهبها، وفيما يدَّعونه من تجرد محمد ﷺ من لباسها. وهي قد أصبحت في هذا العصر حجة على دينهم لا له، وصادة للعلماء والعقلاء عنه لا مقنعة به، ولولا حكاية القرآن لآيات الله التي أيد بها موسى وعيسى عليهما السلام، لكان إقبال أحرار الإفرنج عليه أكثر، واهتداؤهم به أعم وأسرع، لأن أساسه قد بُني على العقل والعلم وموافقة الفطرة البشرية، وتزكية أنفس الأفراد، وترقية مصالح الإجتماع. وأما آيته التي احتج بها على كونه من عند الله تعالى فهي القرآن، وأمية محمد عليه الصلاة والسلام، فإنما هي آية علمية تدرك بالعقل والحس والوجدان.

كفاك بالعلم في الأمي معجزة ... في الجاهلية والتأديب في اليتم

وأما تلك العجائب الكونية فهي مثار شبهات وتأويلات كثيرة في روايتها وفي صحتها، وفي دلالتها، وأمثال هذه الأمور تقع من أناس كثيرين في كل زمان، والمنقول منها عن صوفية الهنود والمسلمين، أكثر من المنقول عن العهدين العتيق والجديد وعن مناقب القديسين، وهي من منفرات العلماء عن الدين في هذا العصر، وسنبين ما جاء به الإسلام فيها من القول الفصل.

العجائب وما للمسيح منها

جاء في تعريف العجائب وأنواعها من قاموس الكتاب المقدس ما نصه:

«عجيبة: حادثة تحدث بقوة إلهية خارقةً مجرى العادة الطبيعية لإثبات إرسالية من جرت على يده أو فيه. والعجيبة الحقيقية هي فوق الطبيعة لا ضدها تحدث بتوقيف نواميس الطبيعة لا بمعاكستها، وهي إظهار نظام أعلى من الطبيعة يخضع له النظام الطبيعي. ولنا في فعل الإرادة مثال يُظهر لنا حقيقة أمر العجائب، إذ بها ترفع

(1) سيأتي تفصيل آخر في تحقيق مسألة الخوارق وأنواعها والفرق بين آيات الأنبياء والرسل منها وغيرها، كالكرامات والخصائص الروحية.

اليد وبذلك توقف ناموس الثقل[1]، ويتسلط الله على قوى الطبيعة ويرشدها ويمد مدارها ويحصره لأنها عوامل لمشيئته، ويناط فعل العجائب بالله وحده أو بمن سمح له بذلك.

«وإذا آمنا بالله القادر على كل شيء لم يعسر علينا التسليم بإمكان العجائب، وكانت العجيبة الأولى خليقة الكون من العدم بإرادته تعالى. أما المسيح فأقنومه عجيبة أدبية عظيمة، وعجائبه لم تكن إلا إظهار هذا الأقنوم وأعماله، وإذا آمنا بالمسيح ابن الله العديم الخطية لم يعسر علينا تصديق عجائبه. أما الشيطان فعجائبه كذابة.

«ولا بد من العجائب لتعزيز الديانة فكثيراً ما يستشهد المسيح بعجائبه لإثبات لاهوته وكونه المسيح، وكان يفعلها لتمجيد الله ولمنفعة نفوس الناس وأبدانهم، وكان يفعلها ظاهراً أمام جماهير أصحابه وأعدائه ولم ينكرها أعداؤه غير أنهم نسبوها ليعلزبول[2]. وسواء امتحنَّاها بالشهادة من الخارج أو بمناسبتها إلى إرساليته الإلهية، ظهرت لكل من كان خالياً من الغرض صحيحة، فإذا لم نسلم بصحتها التزمنا أن نقول بأن مقرريها كذَّابون، الأمر الذي لا يسوغ ظنه بالمسيح والرسل[3].

---

(1) أي سنة جاذبية الثقل التي تقتضي سقوط الأجسام إلى مركز الأرض.

(2) أي إلى الشيطان، والأناجيل تثبت العجائب للشيطان كما صرح به آنفاً، بل يبالغون في عجائبه وتصرفه في العالم، ومن أسمائه عندهم: إله هذا الدهر. قال في قاموس الكتاب المقدس (فلنا في شخصيته نفس البراهين التي لنا في شخصية الروح القدس والملائكة) راجع ص650 جزء أول وتعجب من أهل هذا الدين.

(3) هذا استدلال غير منطقي، فلا تقوم به الحجة على المنكر ولا يحتاج إليه المعترف المقلد. وحاصله: إما أن نسلم صحة هذه العجائب، وإما أن نقول إن رواتها كاذبون، لكن كذب رواتها لا يسوغ أن يظن بالمسيح والرسل- فثبت أنها صحيحة والمنكر يسوغ كذب الناقلين لها، وله أن يسلم الشرطية المنفصلة ويمنع الاستثناء ويعد مصادره، إذ جعل كلاً من ثبوت كونه مسيحاً من الله وكونهم رسلاً متوقفاً على صدقها، وصدقها متوقفاً على ثبوت ذلك. وهذا دور محال.

«وبقيت قوة العجائب في عصر الرسل. ولما امتدت الديانة المسيحية زال الاضطرار إليها[1] ولا يلزمنا الآن سوى العجائب الأدبية الحاصلة من هذه الديانة مع الشواهد الداخلية على صحتها غير أنه يمكن لله تعالى أن يجددها في أي وقت شاء» اهـ.

ثم وضع المؤلف جدولاً أحصى فيه عجائب العهد القديم من خراب سدوم وعمورية على قوم لوط إلى « خلاص يونان (يونس) بواسطة حوت» فبلغت 67 عجيبة، وقفى عليه بجدول العجائب المقرونة بحياة المسيح من الحبل به «بفعل الروح القدس» إلى (الصعود إلى السماء) فبلغت 37، وعزز الجدولين بثالث في (العجائب التي جرت في عصر الرسل) أي الذين بثوا دعوة المسيح من تلاميذه وغيرهم من (انسكاب الروح القدس يوم الخميسين) إلى (شفاء أبي بوبليوس[2] وغيره) فكانت عشرين. وقد صرح بأن يوحنا المعمدان لم يرد في الكتاب أنه صنع عجائب.

بحث في عجائب المسيح عليه السلام:

أقول: إن 27 من عجائب المسيح المذكورة: شفاء مرضى ومجانين لابستهم الشياطين، وثلاث منها إقامة موتى عقب موتهم، وما بقي فمسألة الحبل به وتحويله الماء إلى خمر، وسحب الشبكة في بحر الجليل، وإشباع خمسة آلاف مرة، وأربعة آلاف مرة أخرى، وضرب التينة العقيمة بما أيبسها، وقيامة المسيح وصيد السمك والصعود. وإننا نلخص رواية الأناجيل لأهمها وهو إحياء الموتى ونذكر ما يقوله فيها منكروا العجائب.

(الميت الأول) شاب من مدينة نايين كان محمولاً في جنازة وأمه تبكي، فاستوقف النعش، وقال له: أيها الشاب لك أقول قم. فجلس وابتدأ يتكلم. فدفعه

(1) هذا مذهب البروتستانت ويلزمهم أن عجائب الشيطان بقيت بدون معارض، وأما الكاثوليك فيدعون وجودها في كل عصر.

(2) هو رئيس جزيرة كان مريضاً فرقاه بولص وصلى له فشفي (أعمال 28).

إلى أمه، فأخذ الجميع خوف، ومجدوا الله قائلين: قد قام فينا نبي عظيم وافتقد الله شعبه (لوقا 7 : 11 – 16).

(الثاني) صَبية ماتت، فقال له أبوها وكان رئيساً: ابنتي الآن ماتت ولكن تعالى فضع يدك عليها فتحيا. فجاء بيت الرئيس ووجد المزمرين والجمع يضجون، فقال لهم «تنحوا فإن الصبية لم تمت، لكنها نائمة» فضحكوا عليه، فلما أخرج الجمع دخل وأمسك بيدها فقامت الصبية (متى 9 : 18 – 24).

فمنكرو العجائب يقولون: إن كلا من الشاب والشابة لم يكونا قد ماتا بالفعل، وان كثيراً من الناس في كل زمان قد قاموا من نعوشهم بل من قبورهم بعد أن ظن الناس أنهم ماتوا. ولذلك تمنع الحكومات المدنية دفن الميت إلا بعد أن يكتب أحد الأطباء شهادة بثبوت موته ثبوتاً علمياً فنياً – وللمؤمنين بالآيات أن يجزموا أيضاً بأن الصبية لم تكن ميتة، أخذاً بظاهر قوله عليه السلام «لم تمت ولكنها نائمة» يعني أنها أغمي عليها فظنوا أنها ماتت وهي لم تمت.

وأما الثالث: فهو ليعازر حبيبه وأخو مرثا ومريم حبيبتيه: مرض في قريتهم (بيت عنيا) فأرسلتا إلى المسيح قائلتين: هو ذا الذي تحبه مريض، فمكث يومين وحضر، فوجد أنه مات منذ أربعة أيام، فلاقته مرثا وقالت: يا سيد لو كنت هنا لم يمت أخي، ثم دعت أختها مريم، فلما رأته خرت عند رجليه قائلة كما قالت مرثا وكانوا قد ذهبوا إلى عند القبر للبكاء فلما رآها تبكي واليهود الذين جاءوا معها يبكون انزعج بالروح واضطرب وقال: أين وضعتموه؟ فدلوه عليه، فبكى وانزعج في نفسه وجاء إلى القبر، وكان مغارة وقد وضع عليه حجر، فأمر برفع الحجر فرفعوه (ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال: أيها الآب أشكرك لأنك سمعت لي وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي، ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا أنك أرسلتني) ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم «ليعازر، هلم خارجاً» فخرج الميت ويداه ورجلاه مربوطتان بأقمطة، ووجهه ملفوف بمنديل، فقال لهم يسوع حلوه ودعوه يذهب. اهـ ملخصاً من الفصل 11 من إنجيل يوحنا.

أتدري أيها القاريء ما يقول منكرو العجائب والآيات في هذه القصة على تقدير صحة الرواية؟ إنني سمعت طبيباً سورياً بروتستنتياً يقول: إنها كانت بتواطؤ بينه وبين حبيبته وحبيبه لإقناع اليهود بنبوته -وحاشاه عليه السلام- وإنما ننقل هذا لنبين أن النصارى لا يستطيعون إقامة البرهان في هذا العصر على نبوة المسيح فضلاً عن ألوهيته بهذه الروايات التي تدل على النبوة وتنفي الألوهية، كما فهم الذين شاهدوها، لأنه ليس لها أسانيد متصلة إلى كاتبيها، ولا دليل على عصمتهم من الخطأ في روايتها، دع قول المنكرين باحتمال الإحتيال والتلبيس أو المصادفة فيها أو عدهم إياها -على تقدير ثبوتها- من فلتات الطبيعة[1].

وإذا كان أعظمها -وهو إحياء الميت- يحتمل ما ذكروا من التأويل فما القول في شفاء المرضى وإخراج الشياطين الذي يكثر وقوع مثله في كل زمان؟ والأطباء كلهم يقولون: إن ما يدعيه العوام من دخول الشياطين في أجساد الناس ما هو إلا أمراض عصبية تُشفى بالمعالجة، أو بالوهم والاعتقاد، ودونها مسألة الخمر والسمك ويبس التينة[2].

وفي هذه العجيبة نظر من ثلاث جهات: (الأولى) أن منكر الآيات يقول: إنه يجوز أن تكون التينة يبست بسبب مادي في أثناء وجود المسيح وتلاميذه في أورشليم.

(الثانية) أن الروحيين من فلاسفة الهندوس وغيرهم يقولون: إن كل من كان روحانياً قوي الإرادة يكون له مثل هذا التأثير، فهو من خواص النفس، وهذا

---

(1) وقد نقل مثلها عن بعض صوفية المسلمين والهندوس، فإن كذبوا النقول القديمة فمنها ما رواه من شاهد من أهل عصرنا كما ترى في الحاشية التالية لهذه وهي: الإيمان، وأن كل مؤمن يقول لأي شيء «كن» وهو يؤمن أنه يكون فإنه يكون، ولو كان أمراً للجبل أن يزول من مكانه.

(2) خلاصة عجيبة التينة أنه جاع وهو خارج من بيت عنيا إلى أورشليم مع تلاميذه، فرأى شجرة تين مورقة، فجاءها لعله يجد فيها شيئاً يأكله، فلم يجد فيها شيئاً لأنه لم يكن وقت التين فلعنها قائلا (لا يأكل أحد منك ثمراً بعد إلى الأبد) ولما رجعوا من أورشليم رأوا التينة قد يبست فقال له بطرس: يا سيدي أنظر التينة التي لعنتها قد يبست الخ (مرقص 11 : 11 – 14) فأجابهم بما خلاصته: إن هذا آية.

بمعنى قول المسيح لهم في تأثير الإيمان، وهو ينافي أن يكون بتأييد من الله خارق للعادات الكسبية الدالة على أن من جرت على يده على الحق.

(الثالثة) أن الناس ينقلون مثل هذا في كل زمان، ومن ذلك ما نقلته جريدة المقطم في عددها الذي صدر بتاريخ 4 رمضان من عامنا هذا (1352) الموافق 21 من ديسمبر سنة 1933 مترجماً عن كتاب لطبيب اسمه الكسندر، كان في بلدية لندن، له منصب معروف في مستشفى الأمراض النفسية: أنه ألف كتاباً في الشهر الماضي اسمه (العالم غير المنظور) تكلم فيه عن التنويم المغناطيسي والسحر الأسود وغيرهما من (علوم الغيب) ذكر فيه رحلته إلى الهند والتبت، وما رأى فيها من المناظر المدهشة (ومنها شجرة تين تذبل بأمر رجل، وجثة فقدت الحياة مدة سبع سنوات تعاد إليها الحياة).

ثم نقل عن هذا الكتاب في تفصيل عجيبتي إماتة التينة وإحياء الإنسان الميت نبأ قاض إنكليزي إسمه (مكردي) أنذره أنه سيقتل قبل مرور سبع سنين برصاص بندقية تطلق عليه بأمره، وكان الأمر كذلك، وأن المؤلف سمع هذا الخبر من «اللاما» أي كاهن التبت الأكبر ثم قال المقطم ما نصه بعد العنوان:

إماتة الصوفي الهندي للتينة كالمسيح

ويتكلم الطبيب في كتابه عن صديقه (البروفسور ...) ويقول عنه: إنه يزور سريره كل ليلة وعمره مائة سنة، ولكن منظره منظر رجل ابن أربعين. وقد صحبه مرة إلى شجرة تين فخاطبها صاحبها من بعد قائلاً: لقد أحسنت وقاومت عواصف الحياة وسليت نفسي وشفيتها، وقد آن وقت رحيلك عن عالم الغرور والعدم هذا، فموتي الآن، ولا تعودي إلى الحياة مرة أخرى. قال الطبيب: فذبلت التينة حالاً وسمح لي بفحصها أنا وغيري لنتأكد من موتها. وقص حكاية الرجل الذي أعيدت حياته إليه فقال:

إحياء اللاما كاهن التبت للميت

«كان اللاما الكبير على عرشه فدخل عليه جوق من الرهبان يحملون المشاعل فجلسوا في حلقة واسعة وهم يتمتمون أغنية. فصلى اللاما وفي تلك الدقيقة دخل ثمانية يحملون تابوتاً من حجر فأنزلوه ورفعوا غطاءه فرأينا شخصاً منظره منظر ميت. فسمح لي بفحصه فلم أشعر بنبضه ولا بخفقان قلبه وكان بارداً كالحجر وعيناه عينا رجل انقضى عليه يوم كامل وهو ميت ووضعت مرآة على فمه وأنفه فلم يظهر عليها أثر تنفسه. ثم لفظ اللاما كلمات فرأينا الميت يفتح عينيه، ثم جلس في تابوته فساعده راهبان على الوقوف والمشي، فدنا من اللاما وانحنى وعاد إلى نعشه وهو لا يزحزح بصره عن (أعظم الحكماء) ثم لم تمض دقائق قليلة حتى عاد ولا حياة فيه. فلم أدر أكان ميتاً حقيقة أم في غيبوبة. فقرأ اللاما أفكاري فقال لي: إن الرجل كان ميتاً مدة سبع سنوات أخرى، وإن عمره مئات من السنين وقد يحيا إلى الأبد إذا صح أن نعد هذا حياة.

(يقول محمد رشيد): وفي هذا الكتاب عجائب أخرى ذكر بعضها في المقطم وذكر أن المجلس البلدي عزله من وظيفته عقاباً له عليه. وأنا قد سمعت في صغري حكاية مشهورة عند أهل بلدنا عن رجل معتقد اسمه الشيخ محمد العصافيري أنه نظر إلى شجرة تين، وقال مسكينة مسكينة تموت، فلم تلبث أن عراها الذبول حتى يبست.

وجملة القول أن حكايات العجائب كثيرة في كل زمان وسيأتي تحقيق القول فيها.

آية نبوة محمد العقلية العلمية
وسائر آياته الكونية

إن ما رواه المحدثون بالأسانيد المتصلة تارة والمرسلة[1] أخرى من الآيات الكونية التي أكرم الله بها عبده ورسوله محمداً ﷺ هي أكثر من كل ما رواه

(1) الرواية المرسلة للحديث هي التي لم يذكر فيها اسم الصحابي الذي رفعه إلى النبي ﷺ.

الإنجيليون وأبعد عن التأويل، ولم يجعلها برهاناً على صحة الدين ولا أمر بتلقينها للناس.

ذلك بأن الله تعالى جعل نبوة محمد ورسالته قائمة على قواعد العلم والعقل في ثبوتها وفي موضوعها، لأن البشر قد بدءوا يدخلون بها في سن الرشد والإستقلال النوعي الذي لا يخضع عقل صاحبه فيه لاتباع من تصدر عنهم أمور عجيبة مخالفة للنظام المألوف في سنن الكون، بل لا يكمل ارتقاؤهم واستعدادهم العقلي مع هذا الخضوع، بل هو من موانعه، فجعل حجة نبوة خاتم النبيين: عين موضوع نبوته وهو كتابه المعجز للبشر بهدايته وبعلومه، وبإعجازه اللفظي والمعنوي، وبأنباء الغيب الماضية والحاضرة والآتية فيه[1]، ليربي البشر على الترقي في هذا الإستقلال إلى ما هم مستعدون له من الكمال.

هذا الفصل بين النبوات الخاصة الماضية، والنبوة العامة الباقية، قد عبر عنه النبي ﷺ بقوله «ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقص الله تعالى علينا في كتابه: أن المشركين اقترحوا الآيات الكونية (العجائب) على رسوله، فاحتج عليهم بالقرآن في جملته، وبما فيه من أخبار الرسل والكتب السابقة التي لم يكن يعلمها هو ولا قومه، وبهدايته وبعلومه وبإعجازه، وعدم استطاعة أحد ولا جماعة ولا العالم كله على الإتيان بمثله ﴿ **قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾** ﴾[الإسراء] وسيأتي تفصيله.

وأما ما أكرمه الله تعالى به من الآيات الكونية فلم يكن لإقامة الحجة على نبوته ورسالته، بل كان من رحمة الله تعالى وعنايته به وبأصحابه في الشدائد. كنصرهم على

(1) قد بينا ذلك في تفسير آية التحدي من سورة البقرة من بضعة وجوه، وسنزيده بياناً في هذا الكتاب، وإنما موضوعنا هنا بيان الفرق بين نبوة نبينا ﷺ ونبوة من قبله.

المعتدين عليهم من الكفار، الذين يفوقونهم عداً وعُدداً واستعداداً بالسلاح والطعام، وناهيك بغزوة بدر والنصر فيها، ثم بغزوة الأحزاب، إذ تألب المشركون واليهود على المسلمين وأحاطوا بمدينتهم، فردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال.

من تلك الآيات: شفاء المرضى، وإبصار الأعمى وإشباع العدد الكثير من الطعام القليل في غزوة الأحزاب، وفي غزوة تبوك، كما وقع للمسيح عليه السلام ومنها: تسخير الله السحاب لإسقاء المسلمين، وتثبيت أقدامهم التي كانت تسيخ في الرمل ببدر، ولم يصب المشركين من غيثها شيء، ومثل ذلك في غزوة تبوك، إذ نفد ماء الجيش في الصحراء والحر شديد، حتى كانوا يذبحون البعير ويخرجون الفرث من كرشه ليعتصروه ويبلوا به ألسنتهم، على قلة الرواحل معهم، وكان يقل من يجد من عصارته ما يشربه شرباً، فقال أبو بكر «يا رسول الله إن الله عودك في الدعاء خيراً فادع لنا، فرفع يديه فدعا، فلم يرجعهما حتى كانت السماء قد سكبت لهم ما ملأوا ما معهم من الروايا ولم تتجاوز عسكرهم[1]».

تأثير العجائب في الأفراد والأمم:

لقد كانت آيات المرسلين حجة على الجاحدين المعاندين، استحقوا بجحودها عذاب الله في الدنيا والآخرة، ولم يؤمن بها ممن شاهدوها إلا المستعدون للإيمان بها. إن فرعون وقومه لم يؤمنوا بآيات موسى، وإن أكثر بني إسرائيل لم يعقلوها[2]، وقد اتخذوا العجل وعبدوه بعد رؤيتها ورؤية غيرها في بَرِيَّة سيناء. وقال اليهود في المسيح: لولا أنه رئيس الشياطين لما أخرج الشيطان من الإنسان. وقالوا: إن إبليس

(1) رواه ابن جرير وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي في كتابيهما «دلائل النبوة» و «الضياء في الأحاديث المختارة». و «الروايا» جمع راوية وهو البعير الذي يُحمل عليه الماء، وكذا غيره من الدواب.

(2) قال تعالى ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾[يونس:83]، الذرية صغار النسل والمتبادر أن تنكيرها هنا للتقليل.

أو بعلزبول[1] يفعل أكبر من فعله، وما كان أكثرهم مؤمنين. وقال المنافقون – وقد رأوا بأعينهم سحابة واحدة في إبَّان القيظ قد مطرت عسكر المؤمنين وحده عند دعاء النبي ﷺ: إننا مطرنا بتأثير النوء لا بدعائه. وقد كان أكثر من آمن بتلك الآيات إنما خضعت أعناقهم واستخذت أنفسهم لما لا يعقلون له سبباً، وقد انطوت الفطرة على أن كل ما لا يعرف له سبب، فالآتي به مظهر للخالق سبحانه، إن لم يكن هو الخالق نفسه، وكان أضعاف أضعافهم يخضع مثل هذا الخضوع نفسه للسحرة والمشعوذين والدجالين ولا يزالون كذلك.

وقد نقلوا عن المسيح عليه السلام أنه سيأتي بعده مُسحاء كذبة وأنبياء كذبة ويعطون آيات عظيمة وعجائب حتى يضلوا لو أمكن المختارين أيضاً (متى 24 : 24).

وقد ذكر في قاموس الكتاب المقدس عدداً كثيراً منهم وأسماء بعضهم. وأقول: إن منهم القادياني الذي ظهر من مسلمي الهند، وتذكر صحف الأخبار ظهور هندي آخر يريد إظهار عجائبه في أمريكا في هذا العام. ونقلوا عن المسيح أنه قال «الحق أقول لكم: ليس كل نبي مقبولاً في وطنه» وجعل القاعدة لمعرفة النبي الصادق تأثير هدايته في الناس، لا الآيات والعجائب فقال «من ثمارهم تعرفونهم» ولم يظهر بعده –ولا قبله– نبي كانت ثماره الطيبة في هداية البشر كثمار محمد ﷺ ولا أحد يصدق عليه قوله في إنجيل يوحنا (16: 12 إن لي أمورا كثيرة أيضاً، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك (أي البارقليط) روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق) الخ وما جاء بعده نبي أرشد الناس إلى جميع الحق في الدين، من توحيد وتشريع وحكمة وتأديب: غير محمد رسول الله وخاتم النبيين.

ومن اسقرأ تواريخ الأمم، عَلِم أن أهل الملل الوثنية أكثر اعتماداً على العجائب من أهل الأديان السماوية، ورأى الجميع ينقلون منها عمن يعتقدون قداستهم من

(1) بعلزبول: من أسماء الشيطان عندهم.

الأولياء والقديسين، أكثر مما نقلوا عن الأنبياء والمرسلين، ورأى أن أكثر المصدقين بها من الخرافيين.

ثبوت نبوة محمد بنفسها وإثباتها لغيرها:

وجملة القول: أن نبوة محمد ﷺ قد ثبتت بنفسها، أي بالبرهان العلمي والعقلي الذي لا ريب فيه، لا بالآيات والعجائب الكونية، وأن هذا البرهان قائم ماثل للعقول والحواس في كل زمان، وأنه لا يمكن إثبات آيات النبيين السابقين إلا بثبوت نبوته ﷺ، وهذا القرآن الذي جاء به، فالحجة الوحيدة عليها في هذا الطور العلمي الاستقلالي من أطوار النوع البشري هو شهادته لها، فإن الكتب التي نقلتها لا يمكن إثبات عزوها إلى من عُزيت إليهم، إذ لا يوجد نسخ منها منقولة عنهم باللغات التي كتبوها بها لا تواتراً ولا آحاداً، ولا يمكن إثبات عصمتهم من الخطأ فيما كتبوه على إختلافه، وتناقضه، وتعارضه، ولا إثبات صحة التراجم التي نُقلت بها، كما قلنا آنفاً وبيناه بالتفصيل مراراً.

إن الكتاب الإلهي الوحيد الذي نقل بنصه الحرفي تواتراً عمن جاء به بطريقتي الحفظ والكتابة معاً: هو القرآن، وإن النبي الوحيد الذي نقل تاريخه بالروايات المتصلة الأسانيد حفظاً وكتابة هو محمد ﷺ. فالدين الوحيد الذي يمكن أن يعقله العلماء المستقلون في الفهم والرأي ويبنوا عليه حكمهم: هو الإسلام.

وأما خلاصة ما يمكن الإعتراف به من الأديان السابقة لثبوت قضاياه الإجمالية بالتواتر المعنوي، فهو أنه وجد في جميع أمم الحضارة القديمة دعاة إلى عبادة الله تعالى وحده، وإلى العمل الصالح، وإلى ترك الشرور والرذائل، منهم أنبياء مبلغون عن الله تعالى، مبشرين ومنذرين، كما أنه وجد فيهم حكماء يبنون إرشادهم على الاحتجاج بما ينفع الناس ويضرهم بحكم العقل والتجربة - ووجد في جميع ما نقل عن الفريقين أمور مخالفة للعقل ولما ينفع الناس، وأمور خاصة بأقوامهم وبزمانهم، وخرافات ينكرها العقل وينقضها العلم.

وإذا كان الإسلام ونبيه هو الدين الوحيد الذي عُرفت حقيقته وتاريخه بالتفصيل، فإننا نذكر هنا شبهة علماء الإفرنج الماديين ومقلدتهم عليه، بعد مقدمة في شهادتهم الإجمالية له، تمهيداً لدحض الشبهة ونهوض الحجة فنقول:

***

درس علماء الإفرنج للسيرة المحمدية وشهادتهم بصدقه ﷺ

درس علماء الإفرنج تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده على طريقتهم في النقد والتحليل، ودرسوا السيرة النبوية المحمدية وفلُّوها فلياً، ونقشوها بالمناقيش وقرءوا القرآن بلغته وقرؤا ما ترجمه به أقوامهم، وكانوا على علم محيط بكتب العهدين القديم والجديد، وتاريخ الأديان، ولا سيما الديانتين اليهودية والنصرانية، وبما كتبه المتعصبون للكنيسة من الافتراء على الإسلام والنبي والقرآن، مما أشرنا إلى بعضه آنفاً، فخرجوا من هذه الدروس كلها بالنتيجة الآتية:

إن محمداً كان سليم الفطرة، كامل العقل كريم الأخلاق، صادق الحديث، عفيف النفس قنوعاً بالقليل من الرزق غير طموع بالمال، ولا جنوح إلى الملك، ولم يُعن بما كان يُعنى به قومه من الفخر والمباراة في تحبير الخطب ولا قرض الشعر، وكان يمقت ما كانوا عليه من الشرك وخرافات الوثنية، ويحتقر ما يتنافسون فيه من الشهوات البهيمية، كالخمر والميسر وأكل أموال الناس بالباطل، وبهذا كله وبما ثبت من سيرته ويقينه بعد النبوة جزموا بأنه كان صادقاً فيما ادعاه بعد استكمال الأربعين من سنه من رؤية ملك الوحي، وإقرائه إياه هذا القرآن، وإنبائه بأنه رسول من الله لهداية قومه فسائر الناس.

وزادهم ثقة بصدقه: أنْ كان أول الناس إيماناً به وإهتداء بنبوته أعلمهم بدخيلة أمره، وأولهم زوجه خديجة المشهورة بالعقل والنبل والفضيلة، ومولاه زيد بن حارثة الذي اختار أن يكون عبداً له على أن يلحق بوالده وأهل بيته ويكون معهم

حراً، ثم أن كان الذين آمنوا به من أعظم العرب حرية واستقلالاً في الرأي ولا سيما أبي بكر وعمر[1].

فأما المؤمنون بالله وملائكته وبأن للبشر أرواحاً خالدة من هؤلاء الإفرنج فقد آمنوا بنبوة محمد ﷺ على عِلم برهان، وهم يزيدون عاماً بعد عام، بقدر ما يتاح لهم من العلم بالإسلام.

وأما الماديون فلم يكن لهم بد من تفسير لهذه الحادثة أو الظاهرة التي لا ريب في صحتها وثبوتها، وتصويرها بالصورة العلمية التي يقبلها العقل، الذي لا يؤمن صاحبه بما وراء المادة أو الطبيعية من عالم الغيب.

قدحوا زناد الفكر، واستوروا به نظريات الفلسفة، فلاح لهم منه سِقط أبصروا في ضوئه الضئيل الصورة الخيالية التي أجملها الأستاذ مونتيه في عبارته التي نقلناها عنه آنفاً، وفصلها أميل درمنغام وغيره بما نشرحه ههنا (في الفصل الثالث من هذا الكتاب).

(1) سننقل طائفة من شهادات العلماء الأحرار في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

obeikandl.com